

إحياء فروض الأمة
واجب للتقدم والنهضة

الاعتبار بالسنن الكونية

من واجب المسلم فى كل عصر أن يفقه أمر الدين، ويتعين طلب هذا التفقه فى عصر التراجع والانكسار، ليتعرف به إلى أصول الإسلام ومدار أحكامه، بما يتطلب العلم بمقاصد الشرع والتعامل بفهم مع قضايا الوطن ومصالح المجتمع. والتعامل البناء مع التطورات، وحاجات الفرد والدولة وما أحوج المسلم فى هذا العصر أن يكون محصنا بذلك ليكون نموذجا للشخصية الجديرة بحمل فكر الإسلام، وقادرا على مجابهة التحديات التى فرضتها طبيعة العصر، بأن يترسم نموذج الشخصية المسلمة الحققة، ويعى فرائض الشرع، وأن يجسدها فى الواقع المعيش، فتسلم عقيدته من الزيغ والريبة، ويحرر الشريعة بهذا الفهم المتبصر من الجمود والتشدد ويسمو بالأخلاق، ويكون عنوانا على تزكية النفس واستقامة الفطرة، وتحضر السلوك.

ولكن تباعد الأزمان، أورت خلافا فى سلوك الفرد والمجتمع، وأفرز صورا من الانحراف عن الفهم السديد للدين والشرع، وشوه العقل المسلم وحجبه عن التفكير الخلاق، وطعن الشخصية المسلمة فى الصميم. وقد ألقى القصور ذلك بظلاله على حالة الفرد والجماعة، نسوق كمؤيد على ذلك، حصر الإسلام فى العبادات وقصره لدى جمهرة المسلمين على الشهادتين والصلاة والزكاة والصوم والحج، وكأن الإسلام هو ذلك فقط، مما أدى إلى الانفصال عن الفرائض الحياتية التى جاء بها الإسلام لتنظيم الاجتماع البشرى، وإعمار الكون، والإشارة تغنى عن

التفصيل من ذلك غياب وحدة الصف ولم الشمل، وتراجع النظام والدقة والضبط في كافة المناحي، وعدم الجدية في تحصيل العلم، والانصراف عن العمل الجاد وحالة التخلف، والقصور عن تحقيق التنمية بمفهومها الشامل، والفصل بين العمل للدنيا والدين، وغيرها من مفردات التقدم المجتمعي، حتى وصل الأمر إلى ما يشبه الخصومة بين الدين والعصر. وقد انعكس ذلك على السواد الأعظم الذي اختزل الإسلام في جانب العبادة، وأسقط الشطر الثاني وهو المعاملة، وضرب صفحا عن الإلتزام بحقيقة الدين المعاملة، الأمر الذي قد غيب النموذج الغد في الشرع وهي الفروض الحضارية التي كان بها أسلافه العالم الأول، في دنيا الناس وعند الله والمعلم الحضارى للإسلام في العالمين، وذلك بالوعى بالجمع بين الفروض العينية، والفروض الكفائية التي تجب على مجموع الأمة وليس جميعها، وبسبب غياب الفروض الأخيرة وقع المسلم في أشد الإثم نتيجة إهمالها، من حيث إنه يؤدي إلى تعثر نظام الجماعة واختلال نظامها، وتدنى مكانتها، وسقوط هيبتها، حتى باتت منقسمة على نفسها، تفرق بها السبيل في اتجاهات عدة، الأمر الذي جعلها عالية على غيرها، ففقدت دورها الناهض بين الأمم والمجتمعات الحديثة. والصورة الماثلة للفرد والمجتمع والأمة في الوقت الراهن شهادة على تشوهات أدخلت على الإسلام، إذ أصبح المسلم يكتفى في إسلامه بأداء العبادات شكلا بلا مضمون، في حين نجده لا يعرى اهتماما لفرائض أساسية في توفير مقومات حياته من المأكل والمشرب والملبس والمسكن والتعليم والعلاج، مما جعله يعتمد في العلم والتقنية والأفكار على من لا يضمرون له الخير، ولا يرجون له التقدم.

وقد نتج عن ذلك حالة من التخبیط والتوهان، مما أسفر عن الفوضى وعدم الانتظام فى مسار الحياة اليومية، وغياب التعاون والتكامل بين الأفراد والجماعات، حتى صار الفرد والجماعة يعيش لنفسه وجماعته فى برج منعزل لا يهتم بشئون المجتمع والأمة، وفى شغل شاغل عنهم. وهنا يبرز واجب العلماء والمفكرين والخطاب الدينى والقومى بالتنبيه على تصحيح المفاهيم الخاطئة، والتوجيه بضرورة إحياء هذه الفروض الغائبة، والتوعية بها مصداقا للدعوة القرآنية: ﴿وَمَا كَانُ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٢٢].

والتزاما بالتوجيه النبوى: [نصّر الله امرءا سمع منا شيئا فبلغه كم سمعه، فرب مبلغ أوعى من سامع] رواه الترمذى، وقال حديث حسن صحيح^(١).

فالفهم والتبصر والفقہ السديد وتوعية الناس بحقائق الدين ومصالح الوطن مطلب أساسى ودائم ومتجدد، لبعث حقائق الإسلام، واستعادة النهضة المفقودة وهو واجب يجدر السعى إليه، كما جاء فى حديث: (من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين) متفق عليه^(٢) لقد نبه الوضع القائم على ضرورة أن يعى المسلم فى العصر الراهن أن أركان الدين وفرائضه العقديّة والعباديّة لا يمكن أن تكون بديلا عن الفرائض الاجتماعيّة وعن تضافر الجهود، فإن الحياة لا تقوم بدون التعاون على مطالب التنمية

(١) رياض الصالحين للنووى، باب أفضل العلم.

(٢) رياض الصالحين للنووى، باب فضل العلم.

والعمران، إذ كيف يمكن أن يؤدي المسلم مقاصد الشرع: بحفظ الدين والنفس والمال والعقل والنسب مع فقدان أمن الفرد والجماعة، وسكينة واستقرار المجتمع، والتعاون على أسباب الحياة وقيام على المرافق الأساسية، وبالموازرة بين الفرد والجماعة وحتمية سد أبواب الخلل والتفرق والانشقاق فهو فريضة لبلوغ أهداف المجتمع، عملاً بقاعدة: (درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة) وقاعدة: (يرتكب أخف الضررين). ان استدعاء الفقه المقاصدى، وإحياء فروض المعاملات فى واقع الناس، وإحيائها فى سلوكياتهم وتعاملهم هو مطلب حيوى لاستعادة الدور الإسلامى فى قيادة وتنظيم المجتمع وضبط حركة الحياة فى ظل فهم واع بالمتطلبات الحياتية، وترتيب للأولويات المجتمعية، فى إطار المنظومة الإسلامية، التى تتكامل مع بعضها البعض، وهو ما يقضى أعمال العقل، وملاحظة ظروف العصر وأحوال الناس، وفقاً للمكنة التى خولها حديث الرسول ﷺ: (أنتم أعلم بأمر دنياكم)^(١).

ونورد بعضاً من تلك القضايا المغيبة، لأهميتها للحالة الحاضرة.

١- قضية وحدة الصف والهدف كنموذج غائب عن حياة المسلمين:

المشهد الراهن يكشف عن البون الشاسع بين الهوية والواقع، فلا يوجد ذلك التطابق بين المبادئ والأفعال وهو ما يكتشف فى العديد من الفرائض فلا يوجد ذلك التعانق بين المبادئ والتطبيق، وهو ما يتكشف فى العديد من الفرائض المغيبة عن واقعنا وفى حياتنا المعيشة من توحيد الكلمة، وجمع الصف، وإرادة التماسك، فنلمس غياب العمل

(١) الحديث صحيح مسلم جزء ٤ كتاب الفضائل رقم ١٤١، ص ١٨٣٦.

بروح الفريق فى واقع المسلمين الحاضر، وتشعب فى الوجهة والهدف مما أثر سلبا فى الوفاق فى اجتماعهم، وهو والتشتت فى مسالكهم، فهم مفتقدون إلى تضافر الجهود فى تسيير شؤونهم يتجادلون ويتدافعون فيما ينبغى الاتفاق عليه، فى تأكيد قوتهم ورفعة مكانتهم، وإنسانية مبادئهم، وصلاح مجتمعاتهم، فى الوقت الذى يركنون فيه إلى إشاعة أفكار وممارسات خاطئة يستسلمون لها وهى ليست من الدين ولا من النظام الذى عاشوا عليه، فقد صاروا شيعا وجماعات متفرقة يفكر كل فريق لنفسه، ويحشد الأنصار لما يدعو إليه وكأنه فى جزيرة منعزلة يعمل لذاته، ويسعى لبلوغ غرضه بمعزل عن الجماعة والأمة، وبغية تحقيق مصلحة ضيقة وجريا وراء طموحات آنية دون أن يكثر كثيرا بضرورة أن تكون مصلحته هى عين مصلحة الوطن والجماعة ليقوى بها مسعى الأمة والجماعة، فى اجتماع الكلمة ولم الشمل، وبلوغ الهدف المشترك. فإن تالقت مصلحته مع مصلحه الجماعة، فقد يحدث ذلك عرضا وكيفما اتفق وليس قصدا أو عن طريق العزم والتخطيط حرصا على دعم الجهود، وتلاقى الإرادات، وصولا إلى الهدف العام، وهو من صور الخلل المائل فى الحالة المجتمعية.

وهذا يخالف نموذج الاجتماع والتعايش الذى أقام عليه الإسلام مجتمعه، وأسس عليه صرح الأمة، فى التعاون والتكامل والتواصل فى الجهود والمسعى بلوغا إلى مجتمع ناهض ووطن عزيز، وأمة موحدة قوية.

٢ - طرح المذهبية والاتجاه إلى الوحدة والتساند المجتمعى

انشطرت المجتمعات الإسلامية إلى فصائل يناوى كل

منها الآخر، ويتربص بعضها بالبعض، وصار الحديث عن الوحدة والتماسك المجتمعي يناقض الواقع ولا يستقيم مع تأكيد الإسلام على بناء المجتمع وفق هذا الصرح المكين. أساسه أن دعوة الإسلام إلى الالتفاف حول الوحدة والائتلاف هي دعوة أصيلة، عاشت عليها الدولة والأمة، وحققت به أمجادها وأهدافها. والآيات الداعية إلى الوحدة والاعتصام حول دين الله ولم تشمل الأمة، والحفاظ على التماسك المجتمعي متضافرة ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٠٣]. ﴿وَلِئَلَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٥٢]. فالوحدة كانت وراء كل الانتصارات التي حققتها الأمة، وأسست عليها مجدها وريادتها على الأمم الأخرى.

وقد عرف المسلمون ذلك وسلكوا الطريق إلى التوحد في إطار التنوع الذي كانت عليه الأمة.

فعلى هديه توحدت القبائل وتعايشت الأديان وانصهرت في بوتقة الإسلام برغم الاختلاف في الجنس واللون واللغة والدين، فانضوى الجميع تحت لواء الإسلام واستظلوا بمظلته.

وهذا يتجلى في أن الإسلام أوجد العنصر الفارسي [سلمان] والرومي [صهيب] والحبشي [بلال] والعربي منذ النشأة الأولى للإسلام، الذين تعاونوا على الإخلاص للدين والأمة الناشئة، وأدرك المسلمون أن هذا الرباط القوى الذى حافظ على نسيج الأمة، وعلى تماسكها المجتمعي، وأمدتها بالقوة، وأقامها على التعاطف والتراحم هو الحصن الحصين،

والملاذ الآمن للفرد والجماعة ينبغي الدفاع عنه وتأييده بكل السبل،
والوعى بواجب قيام المسلم بحاجة أخيه فى الإسلام والوطن.

ومؤيدات ذلك:

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: (من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا،
نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر فى
الدنيا يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة، ومن ستر على مسلم فى الدنيا
ستر الله عليه فى الدنيا والآخرة، والله فى عون العبد ما كان العبد فى
عون أخيه) رواه مسلم وأبو داود والترمذى وحسنه النسائى وابن ماجه
مختصرا والحاكم، وقال صحيح على شرطهما^(١) وليس إحياء هذه الشريعة
الإسلامية ترفا، بل إنها متعينة للمصلحة العامة بأن نستمسك بالهدى
القرآنى والنبوى فى وجوب التعاضد والتساند والتوحد كركيزة الاجتماع
الإسلامى فهو الرباط الجامع لعناصرها المتنوعة ومشاربها المختلفة.
وقد ظل المسلمون يعتنقون هذا الفكر الواحدى الجامع طوال العصور
والأجيال، وجسدته الأمة الإسلامية فى العصر الذهبى للإسلام.
كانت دولة النبوة، هى الأعلى كعبا والأرسخ قدما، فيما فعله
الرسول صلى الله عليه وسلم فى دولة المدينة بين الأوس والخزرج والمهاجرين والأنصار
من جانب وبين اليهود وحتى الوثنيين من جانب آخر. ومع النصرى
على حدود دولة المدينة، فقد ضمت الدولة الناشئة جميع هذه العناصر
فى نسيج واحد فى كيان الدولة فى مواجهة الأعداء.

(١) الترغيب والترهيب للمنذرى، ج ٢، باب الترغيب فى التيسير على المعسر وأنظاره

والوضع عنه.

أثر الفرقة والاختلاف والانقسام

ظل الحرص على التوحد واقعا ملموسا وسلوكا حيا في مسيرة الأمة ،
حاكما لواقعها الحياتي ، مترسخا في الضمير والوجدان لدى المسلم فردا
كان أو جماعة .

وقد علمهم القرآن والسنة أن الفرقة والطائفية هي سبب البلاء ،
ومجلبة للكوارث ، وطريق الهزيمة والفشل ، وحذرهم منها .

والآيات واضحة وقاطعة في الدلالة على هذا المعنى ، بقوله تعالى :
﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنزَعُوا أَنْفُسَكُمْ فَيُضَلَّوْا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ
الصَّابِرِينَ ﴾ [سورة الأنفال : الآية ٤٦] . وحذرت النصوص من الفرقة

والاختلاف ، بقول تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا
جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [سورة آل عمران : الآية ١٠٥] .

وسايرت السنة الهدى القرآني في بيان مغبة الفرقة ، وتداعياتها
الدمدرة ، ونبهت إلى وجوب مواجهتها والتخلص منها ، بكل سبيل .

وفي الحديث : من أتاكم وأمركم جميع على قلب رجل واحد يريد
أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاضربوه بالسيف كائنا من كان^(١) .

دعا القرآن إلى تآلف المجتمع وتماسك العلاقات بين أفرادها ، وكان
حاسما في مواجهة الفرقة وحسم مادة الخلاف والانشقاق ولو بالقوة
والردع .

بقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا
فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقْتُلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَقِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ

(١) مشكاة المصابيح للتبريزي ، ج ٢ ص ٣١٩ .

فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ [سورة الحجرات: الآية ٩].
وهكذا فإن رأب الصدع وإصلاح ذات البين بين المختلفين واجب ومطلب شرعي يتعين القيام به على الحكم والجماعة، لما له من أثر بناء في انتظام الأحوال.

المشهد الراهن عنوان على الانقسام المجتمعي

ليس خفياً على من يطالع الشأن العام في المجتمعات الإسلامية أن يعاين كم أن الساحة مليئة بالتيارات الحاملة لفكر الطائفية البغيضة والأطراف المتباينة حول الإسلام: الهوية والأيدولوجية والنظام فنجد أن بعضها يرفع شعار الطائفية ويحتكر التفسير ويختزل ماهية الدين في شعارات، ويحصر الفهم في ناحية بعينها، موجبا الاتباع والانقياد لما تراه كل طائفة، وكأن الدين من صناعة هذا التيار أو ذلك وأدى هذا الخلل إلى بروز جماعات مسلحة تمثل المسلمين وتشق الصف بعناوين إسلامية، منها تنظيم القاعدة، وداعش تنظيم الدولة الإسلامية في الشام والعراق وغيرها.

والناظر إلى الموقف الماثل يجد العديد من التجمعات تدعو إلى أفكار ورؤى مختلفة كما في فكر السلفية، والإخوان المسلمين، والصوفية، والجماعة الإسلامية، والقرآنيين، والبهايين، مع وجود صاحب المرجعية الإسلامية مؤسسة الأزهر الوسطية التي تحمل فكر أهل السنة والجماعة المعتمد على القرآن والسنة والنقل والعقل الأساس الذي يقوم عليه الإسلام والذي حمل العلم الإسلامي منذ أكثر من ألف سنة تؤصل وتجتهد وتواكب المسيرة، وتحفظ التراث ومصصلحة الأمة فقدمت رصيذا علميا عميقا في فهم الإسلام وتفسير نصوصه تفسيرا سليما

من أسقام العلل المؤدية إلى الفرقة وشق الصف، وهو التوجه الحقيق بالالتفاف حوله والانضواء تحت رايته، لأنه ما كان عليه سلف الأمة. فضلا عن أن المجتمع يزخر بوجود الجماعات الوطنية الأخرى ذات التوجهات السياسية والاجتماعية، بما تقدمه من رؤى أيديولوجية من بينها الليبرالية، واليسار، وائتلاف الشباب الذي يعم المشهد العربي، وهو مشهد تسعى كل جماعة فيه إلى استقطاب الجماهير، وكسب الراى العام بغية الوصول إلى السلطة وقيادة المجتمع.

ومكمن الخطورة فى توسيع شقة الاختلاف بما يؤدى إلى الخلاف الذى قد يقود إلى الصراع والفتن، ويحول المجتمع إلى شيع وأحزاب متصارعة. واجب التوافق على خطة للعمل الجماعى

وما لم تتوصل هذه التيارات أو الجماعات إلى حالة الوفاق والائتلاف على برنامج للتوحد والتماسك يستلم دعوة الإسلام وأديان السماء، فيوشك أن تؤدى هذه الطموحات إلى تمزيق لأواصر المجتمع وأن تكون عاقبته وخيمة على الجماعة الوطنية والوطن والأمة، فتأتى بعكس المقصود منها فى التحرر والإصلاح والنهضة.

ويحذر الإسلام من الفرقة والتشيع والانشقاق بآيات وأحاديث غاية فى الوضوح والجلاء، بحيث تدين السالكين طريقها، وتدرجهم فى زمرة الخارجين عن وجهة الإسلام ومنهجه. ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٥٩]. ويعجب المتابع لكثرة هذه الجماعات وتنافرها وتناحرها فى الوقت الحاضر وهو ما كشف عنه بالحديث

الذى ينهى عن عاقبة الفرقة المهلكة للأمة فيما أخبر عنه الرسول ﷺ
افتترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافتترقت النصارى على اثنتين
وسبعين فرقة، وستفترق أمتى على ثلاثة وسبعين فرقة كلها فى النار إلا
واحدة، قالوا وما هى يا رسول الله؟ قال: (ما أنا عليه وأصحابى)^(١). هذا
الحكم الحاسم فى إدانة الفرق والجماعات المتصارعة يرسم طريق النجاة
وسبيل الخلاص بلزوم أهل السنة والجماعة، بما يعبر عن الفهم السليم
للإسلام، والتوجه الذى يدعو إليه الأزهر بوسطيته ورصيده الدينى
والحضارى، وما يقوم عليه منهجه التعليمى الذى يدرس الفرق الكلامية
على تعدد مشاربها ومسالكها.

وكذلك فيما يقوم بتدريسه من المذاهب الفقهية على اتساع أطروحاتها
حتى وصلت إلى ثمانية مذاهب تختلف آراؤها فى قضايا عديدة ومن
ثم يكون المتعلم على دراية بما أنجزه الفكر، وقدر الثراء فى العلم
الإسلامى، وحضارة المسلمين عندما تمسكوا بالأصول، واحتشدوا حول
الهدف، واصطفوا جميعا حوله، وعملوا من أجله.

وما لم يتبصر الفرقاء بخطورة التنازع، وآثاره الوخيمة، ويبادر
كل فريق إلى لم الشمل، والتآلف والانضواء فى سلك الجماعة فإن
المآل جد خطير، لأنه يفجر الفتنة ويشعل الخلاف، ويؤجج
الصراع، الذى يصل إلى الاقتال أو الحرب الأهلية، وهو ما ينبغى
الكف عنه، باعتباره وسيلة إلى الفتنة المحرمة، ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ
مِنَ الْقَتْلِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩١]. وقد نبه الرسول إلى خطورة
الفتنة وأرشد إلى تلافى أسبابها، وآفاتهما، وخطورة إشعالها.

(١) سنن ابن ماجة، كتاب الفتن.

وقد كان الصحابة مدركين لهذه الخطورة، وكان من بينهم من نبه إلى ذلك كما في حديث حذيفة بن اليمان، قال قال رسول الله ﷺ وهو يحدث مجلساً أنا فيه عن الفتن، فقال رسول الله ﷺ وهو يعد الفتن منهن: (ثلاث لا يكون يذرن شيئاً، ومنهن فتن كرياح الصيف منها صغار ومنها كبار)^(١) وأبواب الفتنة كثيرة وصناعها أشد من العدو، وهم وقود جهنم وإخوان الشياطين، لما يترتب عليها من الفساد والدمار، مما يجدر بالمسلم أن يغلق باب الفتنة ويقف ضد مشعلها.

حدثنا محمد بن المثنى... أنه سمع أبا إدريس الخولاني أنه سمع حذيفة بن اليمان، يقول: (كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت يا رسول الله: إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم. قلت وهل بعد ذلك الشر من خير، قال: نعم، وفيه دخن [حقد أو فساد في القلب] قلت ما دخنه؟ قال قوم يهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها قلت يا رسول الله: صفهم لنا: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك، قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام، قال: فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت، وأنت على ذلك).^(٢)

(١) صحيح مسلم، ج ١٨ كتاب الفتن وأشرط الساعة، ص ١٥.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، ج ١٦، باب كيف الأمر

إذا لم تكن جماعة، ص ١٤.

فالنجاة والملاذ من الفتنة يكون بالاعتصام بالجماعة ولزوم الأمة، وإطفاء نيران الفتنة، وهي فريضة الاجتماع فى الإسلام. وفى حديث أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ: (يتقارب الزمان ويقبض العلم وتظهر الفتن ويلقى الشح ويكثر الهرج، قالوا ما الهرج قال القتل)^(١). إن الفرقة والانقسام مدخل إلى الفتنة بكل ما تجلبه للفرد والجماعة والوطن من شرور نربأ بالإخوة فى الوطن والدين أن يسدوا منافذ الشيطان، وألا يكونوا أداة لتنفيذ مخطط الأعداء.

السبيل إلى البناء وتحقيق الأهداف فى ظل المرحلة الراهنة

يتعين فوراً وبلا إبطاء إنهاء الخلاف والصراع، والعمل على القضاء أو الحد من الفوضى والبلطجة والانفلات الأمنى، كسبيل للبناء فتلك مسألة ضرورية يجب تحقيقها لبلوغ الأهداف وإلا كنا منبطحين ومستسلمين لدعاة تمزيق الوطن ومستجيبين لآفات الفرقة التى سرت عداوها بين أصحاب الدين الواحد وبين أتباع أديان السماء المؤمنين بالله وبالحق والعدل والتعايش السلمى والوطن المشترك، وهى نقيصة وعوار ومخالفة لنداء القرآن: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٦٤] والأجدر بكل التيارات المنتشرة على الساحة، أن تتصالح مع هوية المجتمع، وأن تحتكم إلى المصلحة العامة وتتجرد عن الهوى وأن تتعاون فيما بينها لصالح الوطن، فليس أى حزب أو ائتلاف أولى

(١) صحيح مسلم، ج ١٦، كتاب العلم، ص ٢٢٢، ٢٢٣.

بخدمة الوطن، أو أحق به من الفريق الآخر، بل كل شركاء يحتاج إليهم الوطن، يلتفون حول مصالحه ويرسمون جميعا حاضره ومستقبله فهم أصحاب حق فيه دون استثناء للبعض أو إقصاء للأخر، وليس أمام الجميع إلا الوفاق بالحوار البناء، بلوغا للأهداف، والعمل على تحقيق المصلحة بالتعاون والتنسيق والتوافق على كل ما يسد أبواب الخلاف، ونشد المصلحة، ويؤكد على الأهداف الكبرى في بناء الأمة وبلوغ نهضتها والسير على طريق الإصلاح والحرية والكرامة والديمقراطية والعدالة، ووأد الاستبداد.

٣ - حتمية العمل والتنمية

يتعذر قيام مجتمع الحرية والكرامة والعدالة في غيبة الجدية والاتقان والمثابرة على العمل والتنمية المستدامة، طلبا لتوفير المطالب الأساسية اللازمة لوجود حياة كريمة، ونهضة حقيقية للفرد والمجتمع والأمة على السواء.

لذلك فإن على الفرد والجماعة أن يقفوا سدا منيعا أمام مظاهر الخلل، وأساليب العنف التي تحول دون المضي قدما على هذا الطريق، وتحرم المجتمع من تحقيقه ولا يجوز بدعوى المعاناة والفاقة الانصراف عن العمل والإنتاج وسلوك طريق العصيان، والفوضى، تعبيرا عن الاحتجاج وإدانة الممارسات الخاطئة وما ينتج عنها من الظلم والطغيان والفساد والاستبداد فإن الأجر السير على طريق محاسبة ومعاقبة الفاسدين والمجرمين، والانطلاق في نفس الوقت إلى العمل للتخلص من الفقر والتخلف والجهالة في المجتمع.

لقد بات العمل الجماعي فريضة الوقت لبناء الوطن والصمود أمام التحديات الجسام التي تحاصر الأمة الإسلامية من الداخل والخارج فعلى من يتصدرون للعمل العام، ويهتمون بالقضايا القومية أن يتوافقوا على خريطة إعادة البناء وسبيل النهضة، بالتعامل العلمى مع الحاضر، واستشراف المستقبل ولا يتأتى ذلك إلا بإعداد الخطط، وتحديد الوسائل اللازمة لبلوغ الأهداف العليا والتي هي موضع اتفاق أو وفاق، والحرص على مصلحة الوطن والمجتمع والأمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [سورة الحشر: الآية ١٨]. إزاء ذلك فإن على كل فرد من أبناء الوطن أن يعمل ويتقن العمل باعتباره أداة حتمية لا مفر منها لبناء الوطن، وحصول كل فرد على مقومات حياته، وتحقيق الحياة الكريمة وحد الكفاية لكل فرد.

أن الحرص على سلوك طريق العمل قضية واجب شرعى يضطلع به كل فرد وفق ما يحسنه مهما كان صغيرا، فهو مما أمر به الشرع، ووجه إليه: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ عَمَلِكُمْ وَرَسُولِهِ، وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَرُدُونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْعِيبِ وَالشَّهَادَةِ فِى نَبِيِّكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٠٥]. وبالاستجابة إلى نداء الشرع الذى يحيى الأمة، حيث طلب الله تعالى من الناس تنميته الأرض وعمارة الكون: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [سورة هود: الآية ٦١]. أى طلب من الناس عمارتها كما يقول الزمخشري أمركم بالعمارة وهى متنوعة ما بين واجب وندب ومباح^(١) وفى حالتنا الكائنة فإن التنمية والعمل فريضة وواجب متعين على الفرد والجماعة كل بما يقدر عليه ويتيسر له.

(١) تفسير الكشاف، ج ٢، ص ١٠٤.

إن العمل ليس فقط سبيل الانعتاق من الفقر وبلوغ الغنى ، وهو محقق للعةزة، والتعفف عن السؤال، وهو صنيع الأنبياء فعن النبي ﷺ أنه قال : (كان داوود لا يأكل إلا من عمل يده) رواه البخارى. ^(١) وروى عنه ﷺ أنه قال : (كان زكريا عليه السلام نجارا) رواه مسلم.

فالعمل الجاد المنتج سبيل رضاء الرب وبناء الوطن ولو قام كل منا بواجبه فيه وتوكل على الخالق الرازق لتغير حالنا وتقدم مجتمعا. وقد روى عن الرسول ﷺ : (لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماسا وتروح بطن) رواه الترمذى ، وقال : حديث حسن ^(٢).

فهل نعى المطلوب ، ونكون أهلا للقيام بالفروض الحياتية بفهم واع وفكر مستقيم باعتبار أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب وأن يكون رائدنا نبذ الفرقة وجمع الشمل والإذعان لحكم الفريضة نحو التقدم والعمل لمصلحة الوطن والأمة ابتغاء رضا الله ورفعة المجتمع ، ونهضة الوطن ، أم تظل على حالة الشقاق وتغييب العمل المنتج الذى يرتقى بالوطن والأمة ، هذا ما ستبديه لنا الأيام.

(١) رياض الصالحين للنووى ، باب الحث على الأكل من عمل يده ، والتعفف عن السؤال والتعرض للإعطاء.

(٢) رياض الصالحين للنووى ص ٥٥ باب اليقين والتوكل.

إسلام العروبة وفاق لا شقاق

تظل أحداث غزة مصدر فخار لكفاح البطولة والكرامة على التضحية الفلسطينية بكل عزيز وغالٍ من الأطفال والعجائز والنساء والرجال في حدث مشهود فقد سطر صك مقاومة المجاهدين حملوا أرواحهم على أكفهم في سبيل الدفاع عن الدين والوطن والعرض والجدود الفلسطيني الصامد على أرض سيناء الحبيبة التي ذكرها الله في قرآنه: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذُّهْنِ وَصَبِغٍ لِّلْأَكْلِينِ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٢٠].

تعيد للذاكرة أمجاد الدفاع عن الحق وتراب الوطن ولو بالقلعة في الزاد والنقص في العدد والعتاد أمام نازية إسرائيل المدعومة بقوى الشر ممن لا يبيلون بحرمة النفس الإنسانية ويدوسونها بالأقدام، ويقف من خلفهم من يناصرونهم في كل محفل وبكافة السبل بالسلح والمال والرأى والقرار تأييداً للنازية الإسرائيلية التي تبغى اجتثاث أهل فلسطين من ديارهم. وتنكر عليهم بكل سبيل حقهم في الحياة على أرضهم، ومقاومة المحتل الغاصب واستحقاقاتهم في العيش بإباء وعزة شأنهم شأن البشر الأحرار في كل مكان وزمان، ضاربة بعرض الحائط موثيق حقوق الإنسان. إن ملحمة غزة البطولة والفداء بتجلياتها الناصعة في الإصرار على الصمود والاستشهاد على الرغم من كل الظروف البائسة التي يحيا في ظلها أبناء الوطن الفلسطيني، وهو أن الدم الفلسطيني المسلم حتى في عالم العروبة والإسلام، وعصر المدنية والحضارة والإنسانية التي يتشدق

بها صناع القرار الدولي الذى عطل كل المؤسسات التى تعيد الحق إلى نصابه، ويضع حدا لشلالات الدم، إنما يقدم برهانا عمليا على تخاذل نفر من الأمة، وتقاوس البعض عن القيام بالواجب المستحق عليه تجاه من يواجهون الإبادة، ويكتنون بنيران القنابل الفوسفورية الحارقة، المحرمة دوليا، وهم شهود عيان على المأساة الإنسانية للإخوة فى غزة الذين يذبحون ويبادون على مرأى ومسمع من أمة العروبة والإسلام، وهى غارقة فى بحر الانقسام على نفسها وكأنها ارتضت حياة الإذلال والقهر، وصنيع العدو المهين على أرض فلسطين.

وعلى حين قاوم المجاهدون الفلسطينيون العزل الصهيونى الذى أهلك الحرث والنسل، وعمد إلى استهداف الأطفال والناشئة لأنهم حماة الأرض والوطن فى مستقبل الأيام، قاوموه بصدورهم وإيمانهم لأنهم أصحاب حق فى مقاومة المحتل الباحثين عن العيش فى حرية وكرامة، ويعجب المرء من مشاهدة هذا الصمود وهم على هذا الحال أمام جحافل العدو وهم على يقين لا يغلب بقوله تعالى: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٤٩]. ولا شك أن الأزمات تظهر معادن الرجال، وتفجر الطاقات الكامنة فى صلابة وتماسك، لكن الواقع العربى يكشف عن موقف مُخزٍ من حرب الكلمات والتراشق بالألفاظ التى لا تجدى سبيلا، ويكتفى البعض بالمزايدة بالكلام، ويهاجم مصر كنانة الله فى أرضه، التى أبت إلا أن تكون فى الطليعة حقنا للدم الفلسطينى الذكى ونصرة للإخوة فى فلسطين، وحق عليها أن تفعل ذلك، فإن أهلها فى رباط إلى يوم

القيامة، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ إن ما يحدث في المشهد العربي الراهن من تكريس الانقسام وتشرذم أمة العرب وهى عنوان الإسلام ولحمته، لهو دليل إدانة وانسحاب من ميادين الواجب المقدس، بما يكشف عن تقاعس في الدفاع عن الحقوق الفلسطينية المشروعة، ناهيك عن سواها من الحقوق السلبية والمستباحة على امتداد أرض العروبة والإسلام، وما المآسى الواقعة في العراق والصومال والسودان ولبنان وكشمير وأفغانستان والشيشان إلا عنوان على انقسام فى وحدة الصف، وتخاذل وتقايس عن أداء الواجب، ونكوص عن تحمل المسئولية ومخالفة لأمر رسخه الله فى قرآنه العظيم: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٠٣]. والتورط فى النهى الذى حذرنا الله من الوقوع فيه، بل تواعد من مغبة حصوله لما ينشأ عنه من الخيبة والخسران، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْزَعُوا أَنْفُسَكُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [سورة الأنفال: الآية ٤٦]. ويدرك كل من يعى تاريخ ومسار أمة العروبة والإسلام أن يستيقن الحقيقة الناصعة، والتي تثبتتها الأحداث دوما على مر العصور، وهى أن نصرها على عدوها وفى كل شئون حياتها كان فى توحيدها وتضامنها وتكاملها، وأن انتكاسها وهزيمتها كان فى تفرقتها وتشرذمها وتنازعها، وهو الواقع المعيشى الذى تحياه الأمة فى عصرنا الحاضر صنيع أناس. يقولون ولا يفعلون ويحاربون بالكلمات، ويتراشقون بالعبارات فى وسائل الإعلام، ويحسبون أنهم أدوا واجبهم، إنما هو عبث وخداع يعلمه الله الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، ولا ينطلى على الشعوب،

ولا ينخدع به الرأي العام والأمم في عصر الكونية، وعلى من ينتنكر للحقوق السليبية، ويدفن الرأس في الرمال أن يعلم أن مآل هذا التخاذل الفشل والدمار والذل والهوان فضلا عن أنه سيلقى به من مزبلة التاريخ. أما الحقيقة الخالدة فإنها تتجلى في حتمية الوعي النابه والعمل المشترك والتوحد البناء في قضايا الأمة، في ظل غياب الشرعية الدولية، التي أصابت العدالة العالمية في مقتل، لما تكشف عنه المأساة الراهنة من القتل والتدمير والوحشية والحصار لشعب فلسطين الذي يقاوم إسرائيل المحتلة لأرضه، والخارجة من هذه الشرعية المنتهكة للعدالة الدولية المغيبة وهو برهان ساطع على الكيل بمكيالين وعلى المعايير المزدوجة في شأن الحق العربي والدم المسلم المراق هنا وهناك، وعلى الاستخفاف المستمر بحقوق الإنسان العربي، بدءاً من حقه في الحياة وعصمة دمه ونفسه مروراً بحقه في الحصول على حريته والعيش في عزة على أرضه ووطن أجداده، وانتهاء بحقه في الاستقلال وتقرير مصيره بعيداً عن تدخل العدو الغاشم الذي لا يرضى بديلاً من جلاء هذا العدوان السافر سوى تركيع المقاومة، وتصفية القضية الفلسطينية وإماتة الحق العربي والإسلامي في القدس مدينة المسجد الأقصى ومسرى رسول الإسلام، ومهبط الأديان وأرض السلام التي حافظ على هويتها ومعالمها المقدسة أهل فلسطين عبر الأجيال والقرون، وتواصل الأمم والحضارات. إزاء هذا فلا سبيل أمام العرب باعتبارهم أصل الإسلام ومادة الدين الإنساني، إلا أن يكفوا عن الفرقة، وينتهوا عن النزاع طلباً لوحدة الكلمة والتوافق على الانصياع لنصرة قضايا الأمة، وأن يتعايشوا سوياً مهما كان